الثقافة الإسلامية وتكنولوجيا الاتصالات الحديثة

تحديات الواقع وآفاق المستقبل

أ. د. محروس محمد محروس بسيوني^{*}

ملخص البحث

إن عصرنا الذي نعيشه له سماته وأدواته التي يمتاز بها عن غيره وإن مما يميز عصرنا الحاضر؛ ذلك التقدم والتطور الهائل والسريع في تكنولوجيا الاتصالات، حتى غدا العالم يركض وراء كل جديد؛ ليتابع المستجدات في كل لحظة يعلن فيها عن ميلاد فجر جديد في عالم الاتصالات، وتكنولوجيا المعلومات. لقد أصبحت وسائل الاتصال سلاحاً له شأن بين الدول الشعوب والثقافات لقدرتها على البناء والهدم للعقول والمجتمعات بأسرها. ولو اقتصرَت تلك الوسائل على مد البشرية بما تحتاجه

❖ الأستاذ المساعد كلية الشريعة والدراسات الإسلامية قسم الدعوة والثقافة الإسلامية جامعة قطر،

البريد الإلكتروني: mahrous.mohamed@qu.edu.qa

من سبل التواصل وتعزيز قيم الخير؛ لكفت الكثيرين عناء البحث و التحري عن مآل العالم الذى بات أسيرًا لهذه التكنولوجيا، وذلك لسيرها في مسارٍ لا يختلف عليه اثنان، ولكن السيطرة على تلك التكنولوجيا، وتوجيهها وجهات متباينة من قِبل الغرب ومؤسساته، أو من قِبل دوائر في الشرق - جعلت هذه التكنولوجيا مطيةً ذلولاً لتوجهاتها - أثار الكثير من الجدل والقلق على حاضر ومستقبل المجتمعات المستهلكة والمستقبلة لهذه التكنولوجيا - خاصة - في المجال الثقافي. ذلك المجال الذي تظهر فيه أيديولوجيا المستخدم وقيمه ومبادئه؛ ونظرًا لأن المسلمين في هذا الميدان هم المستقبلون لهذا الوافد الجديد، كان لابد من بيان الأثر الناتج عن العلاقة بين الثقافة الإسلامية وتلك الوسائل التكنولوجية الحديثة، وهذا هو هدف البحث. حيث يحاول البحث رسم صورة الواقع عن تلك العلاقة، وآثارها، ويتطلع إلى المستقبل، متنبئًا بما تحمله الأيام من مخاطر، أو فرص للثقافة الإسلامية مع تكنولوجيا الاتصالات الحديثة. ومن ثم سوف يجيب البحث - بإذن الله تعالى - عن الأسئلة الآتية:

• ما معنى الثقافة وما خصائصها؟ وماذا تعنى تكنولوجيا الاتصالات الحديثة؟ وما خصائصها؟

• ما الآثار السلبية لتكنولوجيا الاتصالات الحديثة على الثقافة الإسلامية ؟

• ما الآثار الإيجابية لتكنولوجيا الاتصالات الحديثة على الثقافة الإسلامية ؟

إن الإجابة على هذه التساؤلات تمثل إطارًا للبحث، وبيانًا للعلاقة المثلى التي ينبغي أن تكون عليها علاقة الثقافة الإسلامية مع تكنولوجيا الاتصالات الحديثة، كما تبين سبل توظيف هذه التكنولوجيا للحفاظ على الهوية الإسلامية.

للباحث، ثم المراجع والفهارس .

المقدمة

إلا الله، وحده لا شريك له، وأن سيدنا محمد عبد الله ورسوله. وبعد!

تكنولوجيا الاتصالات الحديثة، ثم ثورة الحسابات الإلكترونية التي توغلت في كل مناحي الحياة، وامتزجت بكل وسائل الاتصال، وصار تخطى المعلومات والاتصالات للحدود القومية، وظهور الثقافة التي تهدد الهوية مرتبطاً بهاجس وقضايا أساسية مثل: السيطرة الثقافية، والإنتاج الثقافي والتوزيع، وخلق نظام إعلامي وعالمي جديد .

لقد أصبحت وسائل الاتصال سلاحاً له شأن بين الدول الشعوب والثقافات لقدرتها على البناء والهدم للعقول والمجتمعات بأسرها. ولو اقتصر تلك الوسائل على مد البشرية بما تحتاجه من سبل التواصل وتعزيز قيم الخير؛ لكفت الكثيرين عناء البحث والتحري عن مآل العالم الذي بات أسيراً لهذه التكنولوجيا، وذلك لسيرها في مسارٍ لا يختلف عليه اثنان، ولكن السيطرة على تلك التكنولوجيا، وتوجيهها وجهات متباينة من قِبل الغرب ومؤسساته، أو من قِبل دوائر في الشرق - جعلت هذه التكنولوجيا مطيةً ذلولاً لتوجهاتها - أثار الكثير من الجدل والقلق على حاضر ومستقبل المجتمعات المستهلكة والمستقبل لهذه التكنولوجيا - خاصة - في المجال الثقافي. ذلك المجال الذي تظهر فيه أيديولوجيا المستخدم وقيمه ومبادئه؛ ونظراً لأن المسلمين في هذا الميدان هم المستقبلون لهذا الوافد الجديد، كان لابد من بيان الأثر الناتج عن العلاقة بين الثقافة الإسلامية وتلك الوسائل التكنولوجية الحديثة، وهذا هو هدف البحث. حيث يحاول البحث رسم صورة الواقع عن تلك العلاقة، وآثارها، ويتطلع إلى المستقبل، متنبئاً بما تحمله الأيام من مخاطر، أو فرص للثقافة الإسلامية مع تكنولوجيا الاتصالات الحديثة. ومن ثم سوف يجيب البحث

- بإذن الله تعالى - عن الأسئلة الآتية .

- ما معنى الثقافة وما خصائصها؟ ماذا يعني مصطلح تكنولوجيا الاتصالات الحديثة؟

- ما الآثار السلبية لتكنولوجيا الاتصالات الحديثة على الثقافة الإسلامية ؟
- ما الآثار الإيجابية لتكنولوجيا الاتصالات الحديثة على الثقافة الإسلامية ؟

إن الإجابة على هذه التساؤلات تمثل إطاراً للبحث، وبيئاً للعلاقة المثلى التي ينبغي أن تكون عليها علاقة الثقافة الإسلامية مع تكنولوجيا الاتصالات الحديثة، كما تبين سبل توظيف هذه التكنولوجيا للحفاظ على الهوية الإسلامية.

لقد حدث تَغْيِيرٌ في العالم الحديث بسبب تكنولوجيا الاتصالات الحديثة سياسيًا، واقتصاديًا، وثقافيًا، وبات العالم منقسمًا إلى فريقين الأول: يمتلك المبادرة وناصية الأمر، والتحكم في تلك التكنولوجيا، وله عقيدته، وفكره، وقيمه، وتوجهاته التي يريد أن يفرضها على غيره، ويهدف إلى أن يذوب فيه غيره رغبةً أو رهبةً، والفريق الثاني: مستقبلُ لهذه التكنولوجيا، ولا يجد سبيلًا للانغلاق أو الانكماش، تساوره مخاوفه على عقيدته وهويته وثقافته، ومع ذلك لا تزال عينه مفتوحةً على الوافد الجديد لا يستطيع غض البصر عنه، ولا العيش دون التأثير به، والأمة الإسلامية - عامةً - تقع ضمن هذا الفريق. وحتى يصير أبنائها شركاء في صنع الحضارة الحديثة كان عليهم أن يتجاوبوا مع أدواتها، ولكن بما يضمن لهم بقاء هويتهم واستقلاليتهم وذاتيتهم، ويجنبهم شر الذوبان في الآخر - خاصة - إذا كانت ثقافتهم تحتوي في مضمونها على عوامل البقاء والنماء، وتمتاز عن غيرها بمكوناتها

ومصادرها وخصائصها.

ومن هنا وجب على قادة الرأي، وكل مهتم بشأن الأمة أن يرسموا للأمة طريقاً واضحاً للتعامل مع هذه التكنولوجيا، طريقاً يضمن للأمة الاستفادة من وسائل عصرها، وعدم الانعزال عن واقعها، وفي الوقت نفسه يصون للأمة عقيدتها وتراثها وقيمها، ولا يترك المسلمون الساحة العالمية لمن يتلاعبون بعقول البشر؛ وبذلك يصنعون المستقبل بأيديهم، ويشاركون في الحضارة. بدلاً من أن يكونوا مستهلكين لمنجزاتها فحسب، بل الذي لا بد منه أن توظف تلك التكنولوجيا لجعلها أداة لنشر الثقافة، وضمان حيويتها - خاصة - لما تمتاز به هذه الثقافة من سمات تجعلها مؤهلة لريادة العالم بأسره.

وإذا تم ذلك تكون الأمة قد وفّت بجزءٍ من الواجب عليها تجاه هذه الثقافة، بل والواجب عليها تجاه البشرية الحائرة، ومن هنا جاء البحث مكوناً من تمهيد، ومبحثين، وخاتمة، وتوصياتٍ للباحث، ثم المراجع والفهارس .

مبحث تمهيدي: وفيه بيان لمصطلحات البحث الواردة في عنوانه.

المبحث الأول: الآثار السلبية لتكنولوجيا الاتصالات الحديثة على الثقافة الإسلامية.

المبحث الثاني: الآثار الإيجابية لتكنولوجيا الاتصالات الحديثة على الثقافة

الإسلامية.

الخاتمة: تحتوي على نتائج البحث.

التوصيات: وتشمل على توصيات البحث، والفهارس.

الهيئات العلمية المعنية بالقضايا الثقافية، ولذلك جاء تعريف مجمع اللغة العربية لمصطلح الثقافة بأنها (جملة العلوم والمعارف والفنون التي يُطلب الحذق فيها)^(١) وكذلك تعريف منظمة اليونسكو^(٢) للثقافة بأنها: (مجملة السمات المميزة: الروحية والمادية والفكرية والعاطفية التي يتصف بها مجتمع، أو مجموعة اجتماعية، وهي تشمل إلى جانب الفنون والآداب، طرائق الحياة وأساليب العيش معاً، ومنظومات القيم والتقاليد والمعتقدات).^(٣)

وكذلك جاءت تعريفات الباحثين في كل فن بما يتلاءم مع ذلك الفن مع وجود قاسم مشترك بين التعريفات فمثلاً (علماء الاجتماع اعتبروا الثقافة الجانب الفكري من التقدم البشري، وتعنى الحضارة الجانب المادي من ذلك التقدم، أما علماء النفس، فيرون الثقافة نوعاً من السلوك الشخصي النابع من التفكير الموروث، أما علماء الانثروبولوجيا عرفوا الثقافة بأنها العنصر الأساسي، أو الصفة المميزة التي تميز بين المجتمعات البسيطة والمعقدة).^(٤)

فالقاسم المشترك هنا في التعريفات هو الأمور المعنوية التي تستند عليها الثقافة من قيم، واعتقادات، وعادات، وتقاليد، مع بيان الآثار السلوكية التي تنتج

(١) مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، (القاهرة: المكتبة السلفية، د. ط. د. ت)، ص ١٠٢.

(٢) هي وكالة متخصصة تتبع منظمة الأمم المتحدة عام ١٩٤٥. هدف المنظمة الرئيسي في باريس.

لليونسكو أيضاً أكثر من ٥٠ مكتبا وعدة معاهد تدريسية حول العالم. <http://www.unesco.org>

(٣) <http://www.unesco.org/bpi/eng/unescopress/2001/adivsiteculturelle.htm>

(٤) المرجع نفسه، ص ١٥.

عنها، ومن هنا يمكن تعريف الثقافة بأنها: مجموعة النظم، والقيم، والأفكار، التي تسود مجتمعاً معيناً، تميزه عن غيره، وتؤثر في سلوكيات أفراده، انطلاقاً من ملّة سهاوية، أو نحلة أرضية، أو عادات متعارفة، أو تقاليد متوارثة.

وهذا التعريف يؤكد الآتي:

- ١ - كل مجتمع له ثقافته منذ بدء الخليقة سواء أكان صاحب حضارة أم كان التخلف مهيمناً عليه.
- ٢ - أن الثقافات تختلف تبعاً للخلفيات المتباينة التي تُستقى منها الثقافات، ولذلك نجد كل مجتمعٍ يعتز بثقافته ويعمل على ترسيخها والدفاع عنها؛ لإيانه أن الحفاظ على ثقافته معناه الحفاظ على هويته ووجوده.
- ٣ - أن المظاهر السلوكية هي المعبرة عن الثقافة . من أجل ذلك نجد علم الثقافة يبحث في سلوكيات الأفراد والمجتمعات.
- ٤ - كلما تقاربت الروافد التي تستقي منها الثقافة مادتها، كلما كانت سلوكيات الشعوب المؤمنة بهذه الثقافة متقاربة متشابهة، وهذا واضح في ثقافة الشعوب الإسلامية. فمما لا شك فيه أن هناك تشابهاً واضحاً في الكثير من السلوكيات لأن أصول الثقافة واحدة، وقد نجد اختلافاتٍ طفيفةً تميز بلداً ما عن مثيلاتها من بلدان العالم الإسلامي لخضوع هذا البلد لعادات وتقاليد ميزتها عن غيرها، والأمر نفسه ينطبق على المجتمعات الأوروبية.

وهذا التعريف ينطبق على الثقافة الإسلامية حيث تعرف بأنها: النظم والقيم

والأفكار المستمدة من الدين الإسلامي والعادات والتقاليد التي تؤثر في سلوكيات الأفراد وتميز المجتمع عن غيره .

ثانياً: خصائص الثقافة:

رغم اختلاف الثقافات وتباينها إلا أن هناك خصائص عامة تجمع كل الثقافات رغم تنوعها، وتشكل هذه الخصائص هوية الثقافة، وسمات أخرى تميز الثقافة الإسلامية عن غيرها من الثقافات، وبدايةً أبين السمات العامة لكل الثقافات، ثم أوضح ما تميزت به الثقافة الإسلامية.

١ - سمات الثقافات عامة ما يلي:

أ- إنسانية: فالثقافة محصلة نتاج العقلي للإنسان، ولا يشارك الإنسان في هذه السمة أي مخلوقٍ آخر.

ب- متطورة: فلم يستقر الإنسان على حال، وتطوُّره تزامن مع مسيرته في الحياة، وكان تطور ثقافته معه أمراً لا مناص منه .

ج - التكامل: حيث يسعى الإنسان لسد حاجاته، وتلبية رغباته، مادية، أو معنوية.

د - مستمرة: فالثقافة ظاهرة تنبع من وجود الجماعة، ورضاهم عنها، وتمسكهم بها، ونقلها إلى الأجيال اللاحقة.

هـ - انتقالية: أي أنها قابلةٌ للانتقال من جيلٍ إلى آخر من الكبار الى الصغار

بواسطة التثقيف والتنشئة الثقافية والاجتماعية.^(١)

٢ - خصائص الثقافة الإسلامية:

إن الثقافة الإسلامية بالإضافة لما سبق من مميزات عامة لكل الثقافات، نجد لها ما يميزها من خصائص تجعل لها منزلتها الخاصة، ومكانتها الرفيعة بين ثقافات العالم، أوضحها فيما يلي :

أ – الربانية:

هي السمة أساس كل السمات الأخرى، وبها تمتاز الثقافة الإسلامية عن كل الثقافات في العالم، حتى التي تُستمد من وحى سماوي سابق على رسالة الإسلام، تفوقها الثقافة الإسلامية من حيث المصادقية وعدم التحريف. هذا عن مكانة هذه الخاصة، أما عن معناها فهي تعنى أن الثقافة الإسلامية مصدرها من الله، فمن وحيه تُستمد، وإلى رضاه تهدف، فليس لضلالات البشر فيها نصيب، ولا لانحرافات العقل وضلالاته نكير ولا قطمير، حيث يمثل القرآن الكريم والسنة النبوية أساس هذه الثقافة، ونتيجة لذلك عُصمت الثقافة من الانحرافات والتخبط، وأثر ذلك على معتنقيها، فازدادت ثقتهم بها، وتعلقهم بمبادئها، وانقيادهم لأوامرها، وصار الالتزام بها عبادة، والتمسك بقينها ومبادئها جهادا للنفس والهوى والشيطان، والدفاع عنها - باللسان أو اللسان أو القلب - أمام كل من يرغب في النيل منها ذروة سنام هذا

(١) [-vb.mediun.edu.my/showthread.php?t=85092](http://vb.mediun.edu.my/showthread.php?t=85092) بتصفح

الدين، فلا غرو أن قامت عليها بقية الخصائص، وحازت المكانة العليا بينهم. كما أنها تعنى ربانية الوجهة والغاية، فمفردات الثقافة الإسلامية ليس فيها أمر يخرج عن مراد الله وسنة نبيه، فصار التمسك بأهدابها والتحزب حول قيمها ومبادئها، هو لب الإخلاص وأساسه، وبالحفاظ عليها تتحقق العبودية من الإنسان لخالقه، ويتحرر من ملاحظة المخلوقين والسعي لمراضاتهم، ويكون همه مرضاة الله وحده. إن خاصية الربانية تحرر المسلم من عبودية الذات والغير، وتجعل التجرد سمة لازمة للمسلم، وهذا يحقق كرامة الإنسان، ويشعره بالفخر والاعتزاز، فليس هناك مَنْ يعلوه، أو يتحكم بمصيره إلا ربُّ خلقه، منه يتلقى أوامره، وإليه يتجه في عامة أمره وخاصته.

وهذا يوضع الفارق بين الثقافة الإسلامية وغيرها من حيث المصدر والوجهة، فشتان بين الثرى والثريا، شتان بين من همته رضا المخلوق، ومن همته رضا الخالق، شتان من عبد ذاته وشهواته، فصارت آلهته العاللي، وبين من وَّحد ربه، فصار عبداً ربانياً، فالأول: يصير نهباً لشیطانه، ولصراعات نفسه، وتكون دنياه غاية منتهاه، وأما الآخر: فهو ساكن في الأرض، ولكن همته في السماء، يعيش في الدنيا، وعينه على الآخرة، يتعامل مع البشر، ولكنه رغبته في مرضاة رب البشر.

ب- الشمول:

إن هذه الخاصية تعتمد على سابقتها وهي الربانية، فلا يتحقق معنى الشمول إلا إذا سبقته ربانية تحول دون النقص أو الجور. فالشمول كخاصية للثقافة الإسلامية

يعني إحاطة الثقافة الإسلامية بكل ما تطلبه حياة الإنسان بسماات مميزة تمنعه من الجور أو الخلل، إحاطة تعم كل البشر بكل أنواعهم وأعمارهم وألوانهم وأجناسهم وأزمانهم وأماكنهم، شمولية تحتوي الزمان والمكان والأحداث .

وهذا لا يتحقق إلا إذا استندت هذه الثقافة على الربانية، لأن عقل البشر يتسم بالقصور، وفي الإحاطة بالأشياء زماناً، ومكاناً، ومحتوى، ولذلك نرى الإنسان ينقض اليوم ما بناه بالأمس، ويلغى في المساء ما قرره في الصباح، يُقَرُّ القانون ثم يلغيه، ويبنى الشيء ثم ينقضه، ويبنى تصوره وحكمه على شيء، ثم يتبين له فساد رأيه، وضلال عقله، فيعدل عن رأيه، ويرجع عن حكمه، يشرع للحق والعدل، وقد يشرع لمصلحته تارة، وهوواه أخرى، فيميل مرة لشهواته، ومرة لعقله، فلا يستقيم على حال، فطبيعته النقص، وأعماله يتخللها النسيان والأخطاء.

هذا العورات كلها حاصلة في كل ثقافة لا تعتمد على الربانية؛ وبالتالي تفتقد إلى الشمولية في الطرح أو الأحكام في التشريع والأحكام. إن من شمول هذه الثقافة أنها اعتنت بالإنسان في دنياه وأخراه، عقلاً وجسداً، روحاً ونفساً، فرداً وجماعةً، رجلاً وامرأة، صغيراً وكبيراً، حاكماً ومحكوماً، غنياً وفقيراً، اعتنت به سفرًا وحضرًا، صحةً ومرضًا، في البداوة والحضر، اعتنت به أيام أن كان لا يعرف إلا الدواب وسيلة للترحال، واعتنت به وهو يركب سفينه الفضاء، وكذلك تحتوي على إمكانية العناية به وإرشاده، فيما يُستجد من تطورات في حياته.

(ذلك لأن الثقافة الإسلامية تدعو إلى الحركة وإلى البناء وتنهى عن الجمود وعن الكسل والتواكل والتخلف والتقصير، وهذا التصور الشامل (لوجود) يرد الإنسان إلى

خالقه، فيتلقى منه العقيدة والقيم والمبادئ والأنظمة وسائر ما يواجه به الحياة^(١).

ج- التوازن:

لم يكن في مقدور البشر أن يضعوا ميزاناً لحياتهم يراعى جميع جوانبها دون إهدار لجانب من الجوانب، أو حقاً من الحقوق، في انعزالٍ عن الوحي المعصوم، ويشهد التاريخ بأن كل تجارب البشرية في سبيل ذلك باءت بالفشل الذريع، ولم تكن البشرية من تلك التجارب الا مزيداً من البؤس والصراعات، وانتحار الإنسان وعدوانه، فمن فلسفات البشر مَنْ راعى الفرد؛ فضحى بالجماعة، مثل الرأسالية، ومنها مَنْ راعى الجماعة، فضحى بحقوق الفرد، مثل الشيوعية، ومنها مَنْ اعتنى بالجسد، فضمرت الروح مثل الحضارة الغربية، ومنها مَنْ اعتنى بالروح على حساب الجسد، فمنع الإنسان مع التمتع بما جعله الله حلاله في الدنيا، خالصاً يوم القيام، مثل الرهبانية في المسيحية.

كم من حضاراتٍ قامت وسقطت، وفلسفات راجت وزهبت، وأخرى لا زالت تكتوي البشرية بنيرانها وإخفاقاتها، وما ذلك إلا لعوار هذه الفلسفات لاعتمادها على النظرة القاصرة المخطئة، وأما الثقافة الإسلامية، فإنها تعتمد على التوازن في كل ميدان تختلط فيه الحقوق مع الواجبات، فلا تضحي بحق في سبيل واجب، ولا تقوم بواجب على حساب حق مفروض، فالثقافة الإسلامية تقر للفرد

(١) العمرى، نادية شريف، أضواء على الثقافة الإسلامية، (القاهرة: مؤسسة الرسالة، ط ٤،

١٩٨٦م)، ص ٢٩ و ٣٠.

حقه، وللجماعة حقها، وعلى الفرد حقوق يؤديها للجماعة، وعلى الجماعة حقوق لا بد من أن تؤديها للفرد، بانسجام ووثام بين هذه الحقوق وتلك والواجبات، فلا يتغول حق على واجب، ولا يأخذ الواجب نصيب حق لازم. إننا نلاحظ ذلك حتى في (أسلوب الخطاب الإسلامي حيث يتسم بالتوازن بين الترغيب والترهيب، وبين حوار العقل بأنواع الحوار العديدة، وملامسة المشاعر والعواطف، وذلك ليدرك العقل المسلم مرونة هذا الإسلام، وإن إقامة التوازن والعدل في الأرض لا يتم بالجمود على نهج واحد، وإنما بالمرونة التي هي سمة أسلوب الخطاب الإسلامي الذي ندين به).^(١)

إن الثقافة الإسلامية تجعل التوازن سمة للأخذ وللإعطاء في الحياة، ومن أجل الأمثلة في ذلك الإعجاز التشريعي في توزيع التركة على أهل الميت، حيث يبدو التوازن العظيم الذي يوازن بين أحقية الإنسان في مال المتوفى، ومقدار احتياجه إلى المال، فالرجل عندما يموت ويترك والدًا وولدًا فالأب يتصل به من ناحية الجذر والابن يتصل به من ناحية الفرع. علاقتهم بالميت مباشرة، لا وساطة فيها، ولكن الإعجاز التشريعي المتوازن أعطى الأب سدس تركته ولده المتوفى، وأعطى الابن الباقي؛ لأن الأب مُدبِّر عن الحياة والابن مستقبل لها، فاحتياج الأب للمال أقل بكثير من احتياج الابن، فلا حرمان لأحد، ولكن التوازن هنا سيد المواقف.

(١) حياتي، محمد عبد الله، الثقافة الإسلامية وقضايا ثقافية معاصرة، (المملكة السعودية العربية: مطابع

الابتكار الدمام، ط ٢، ٢٠١٠م)، ص ١٢٨.

د- الواقعية:

إن الواقعية هنا معناها قابلية هذه الثقافة للتطبيق على أرض الواقع، ومراعاتها له، فليس للخيال المفضي إلى الشطط مجال فيها، فالثقافة الإسلامية تصور الإنسان كما هو بجسده وروحه، بصوابه وخطئه، بحسناته وسيئاته، بقبس النور الذي أودعه الله فيه، وقبضة الطين التي أنشأه الله منها، فالإنسان من منظور الثقافة الإسلامية لا هو الملك المعصوم، ولا الشيطان المرجوم، ولكنه المخلوق المكلف، الذي يصيب ويخطئ، يرتقى ويهبط، يسئ ويحسن، قد تغلبه شهوته، أو يستذله شيطانه، أو تستعبده مصالحه، أو يتحكم فيه هواه، يعيش في دنيا تتعارض فيها مصالحه مع مصالح غيره، وحقوقه مع حقوق الآخرين.

إنه المخلوق الذي يحيا ويموت، يصح ويمرض، يفرح ويحزن، يعيش بمفرده ويلتقي بجماعته، فلم تضع الثقافة الإسلامية الإنسان في عالم من الخيال، أو في مدينة فاضلة يُنظر فيها للإنسان بعين واحدة. إنما الواقعية هنا أنها تتعامل مع الإنسان بكل مكوناته وأحواله وتقلباته؛ فترسم له الطريق، وتصوب له المسار، وتوضح له الهدف، ترفعه إذا أحسن، وتقومه إذا أساء، ترشده إلى الصراط المستقيم، وتحثه على الرجوع إلى الحق كلما ابتعد عنه؛ لأنها تعلم أن ذلك من طبيعته.

إن هذه الثقافة تراعي إنسانية الإنسان، فهي ثقافة إنسانية واقعية بامتياز. وهذا يجعل احتياج المسلم لثقافته عظيماً، لأنها معايشة لحاله، فلا فصام بين ما تدعو إليه ثقافته وما يعايشه في واقعه، ومن هنا كانت قابلية هذه الثقافة للتطبيق.

هـ . الإيجابية:

إن هذه الخاصية أستطيع أن أعدها محصلة للخصائص الأخرى وثمرتها لها وفي الوقت نفسه جزءاً من أجزائها؛ لأن الناظر إلى ما سلف من خصائص يجد أنها تغرس في المسلم روح المبادرة، فالربانية تدعوه إلى المسارعة في كل سلوك سني، والتنزّه عن كل خلق وسلوك دني، سعياً إلى مرضاة الله، وتلك إيجابية نلاحظها في هذه الثقافة انطلاقاً من ربانيتها، كما أن واقعية الثقافة تؤدي إلى عدم انفصال المسلم عن واقعه، ويتحسس خطاه من وحي ثقافته، فيجد فيها ما يشفي غليله، فيبادر إلى امتثاله، والسير على هداه، وتلك إيجابية .

كما أن توازن الثقافة يدفع المسلم إلى السير في دروب الحياة غير وجل ولا حائف، لأن حقوقه مصونه، ولن تتعارض مع حقوق الآخرين، ولذلك يسارع إلى أداء ما وجب عليه، بلا ملل ولا كسل. أما الناظر إلى شمولية هذه الثقافة يجد أن الإيجابية نابعة من إحساس المسلم بأن ما فرض عليه قد فرض على الآخرين، وأن الجميع يسعى إلى ما يسعى هو إليه، وهذا يورثه تنافساً وتسابقاً في نيل الخير، وأداء الحقوق والواجبات فلا تمايز في الواجبات، ولا عنصرية في الحقوق؛ ولذلك تكون المبادرة الإيجابية سمة لازمة للمسلم يستمدّها من ثقافته.

ثالثاً: مصطلح تكنولوجيا الاتصالات الحديثة:

من التعريفات لهذا المصطلح أنه: (مجموع التقنيات أو الأدوات أو الوسائل أو النظم المختلفة التي يتم توظيفها لمعالجة المضمون أو المحتوى الذى يراد توصيله

من خلال عملية الاتصال الجماهيري أو الشخصي أو التنظيمي أو الجمعي أو الواسطي، والتي يتم من خلالها جمع المعلومات والبيانات المسموعة أو المكتوبة أو المصورة أو المرسومة أو المسموعة المرئية أو الرقمية من خلال الحسابات الإلكترونية، ثم تخزين هذه البيانات والمعلومات، ثم استخراجها في الوقت المناسب، ثم عملية نشر المواد الاتصالية أو الرسائل أو المضامين مسموعة أو مرئية أو مطبوعة أو رقمية، وتنقلها من مكان إلى مكان آخر، وتبادلها، وقد تكون تلك التقنيات يدوية أو آلية أو إلكترونية أو كهربائية حسب مرحلة التطور التاريخي لوسائل الاتصال والمجالات التي شملها هذا التطور.^(١) أما عبارة تكنولوجيا الاتصال الحديثة فتطلق في الوقت الحاضر على (أقمار الاتصالات سواء منها أقمار الخدمة الثابتة التي تقوم بعملية توزيع الإشارة الإلكترونية الخاصة بالتلفزيون أو التليفون ومشتقاته أو الراديو أو أقمار البث المباشر التي تتعامل مع الجمهور المباشر عن طريق أجهزة الاستقبال المنزلية أو الأقمار متوسطة القوة).^(٢)

رابعاً: السمات المميزة لتكنولوجيا الاتصالات الحديثة :

إن تكنولوجيا الاتصالات الحديثة تتفق مع وسائل الاتصال القديمة في كثير

(١) مسعد، محي محمد، ظاهرة العولمة الأوهام والحقائق، (القاهرة: مكتبة الإشعاع الفني، ط ١، ١٩٩٩م)، ص ٢٦.

(٢) ليب، سعد، الثورة التكنولوجية ووسائل الاتصال العربية، (تونس: المنظمة العربية للتربية والتعليم والثقافة، د. ط، ١٩٩١م)، ص ٣٣.

من سماتها، غير أن الحديثة تميزت بصفاتٍ جعلتها أكثر قدرة، وأشمل من سابقتها في إنجاز الرسائل الإعلامية، أو الخدمات المعلوماتية، والتي سهلت عملها، وجعلتها قادرة على تخطي حدود الزمان والمكان، والخصوصيات للأفراد والدول على السواء، وهذا سر قوتها، وسبب خطرها من هذه السمات الشيوع والانتشار، والتدويل، أو الكونية، والقابلية للتوصيل، واللاتزامنية، واللاجماهيرية، والقابلية للانتقال والحركة، والحفظ والتخزين.

وعندما نتحدث عن تكنولوجيا الاتصالات الحديثة وعلاقتها بالثقافة نجد أن ذلك يتميز بسمّةٍ عامّةٍ نستطيع أن نطلق عليها غزواً إعلامياً؛ لما نلمسه من سماتٍ تجعل هذه التكنولوجيا من مقدورها أن تنقلب من أداةٍ للتواصل إلى أداة للغزو، إذ أن التواصل يعتمد على مبدأ الحرية في الاختيار، وكذلك الاختيار بين البدائل، أما تكنولوجيا الاتصال الآن تعتمد على مبدأ الإكراه والإجبار، حتى بات المتلقي محاصراً بما يُراد له أن يتلقاه، كما أن الوسائل الحديثة تعزز في الفرد الرغبة في الاستعداد للانفصال عن جذوره الثقافية، وكان من الممكن أن تؤدي إلى تمكين الفرد من ترسيخ الانتماء والقدرة على الاختيار، لكن لأنها تفرض ثقافةً معينةً، فقد أمتت في المتلقي القدرة والرغبة في الانتقاء والاختيار، وجعلته متهيئاً للانفصال عن ثقافته إلى ثقافة أخرى، ويعزز من هذا الاستنتاج أن دور هذه التكنولوجيا في صياغة العقول واضحٌ ولا مجال لإنكاره، ولذلك عندما يحذر الباحثون من غزو هذه التكنولوجيا للثقافات وتخوفهم على الثقافات المحلية والإقليمية؛ فذلك لتفهمهم للفارق بين الاتصال الثقافي الذي يعزز ثقافة الشعوب وينميها ويقويها، وبين الغزو الثقافي الذي يهدف إلى

انهيار الثقافات الأخرى ويدعم سيادة ثقافة واحدة.

فإذا كان المستعمر الكلاسيكي قد مارس دورًا تقليديًا من خلال الاحتلال العسكري؛ لتحقيق أهداف اقتصادية ودينية، فإن الاستعماريين الجدد أو الصليبيين الجدد هدفهم الهيمنة من خلال الترويج للثقافة الإمبريالية، لتحل محل الثقافات الوطنية والقومية، لطمس معالم الثقافة الأصلية للبلد المحتل، لتحقيق مبدأ التبعية، مستعينا في ذلك بوسائل التكنولوجيا الحديثة، وإن أي بلد في العالم يتعرض إلى عملية طمس ثقافي وهيمنة على ثقافته الوطنية، فإن النتائج المترتبة على ذلك تكون فقدان وسائل الإعلام في الدول المهيمنة عليها لاستقلالها الفكري، وهذا تهديد مباشر لحرية الدول الضعيفة النامية، وبما أن العالمين العربي والإسلامي يقعان ضمن نطاق هذه الدول الضعيفة والمستهدفة، فإن ذكر الآثار السيئة لهذه التكنولوجيا عليها يعد من الأهمية بمكان، وذلك في المبحث التالي:

المبحث الأول:

الآثار السلبية لتكنولوجيا الاتصالات الحديثة

على الثقافة الإسلامية

كانت وسائل الاتصالات في الماضي محدودة القدرة، وكان تأثيرها على قدر انتشارها وشيوعها، وقدرتها على توصيل الرسالة الإعلامية، لكن الأمر أصبح مختلفًا

حيث بلغت تكنولوجيا الاتصالات في العصر الحاضر مبلغاً عظيماً لم تعهده البشرية من قبل، ولا أزعـم أن ما توصلت إليه التكنولوجيا في مجال الاتصالات يمثل نهاية المطاف، ولكنها طفرة توقعها القليل من العلماء، ممن لهم معرفة وعلم بتطور هذا العلم، أما الكثيرون فقد فُوجئوا بهذا الموج الهادر الذي فتح كل باب، وتخطى كل الحدود، وأثار قضايا جديدة ما كانت لتظهر لولا هذا التقدم المذهل والسريع لهذه التكنولوجيا، ومنها مشكلة هذا البحث.

بيد أن هذا المد وذلك الانتشار والذيع لا يعنينا في حد ذاته، إنما يعنينا هو ذلك الأثر السلبي أو الإيجابي الذي أحدثته تلك الثورة في مجال تكنولوجيا الاتصالات على الثقافة، ولذلك سأبدأ بالآثار السلبية انطلاقاً من القاعدة الأصولية التي تقول (درء المفاسد مقدم على جلب المصالح) ثم أثنى بالآثار الإيجابية فمن هذه الآثار ما يلي:

١ - عولمة الثقافة:

وهذا ظاهر في شيوع النمط الأمريكي للحياة في كثيرٍ من دول العالم ، وفي العديد من الأقطار العربية والإسلامية، وهذا يُمثل خطرًا كبيرًا على تلك المجتمعات. إن العولمة الثقافية تقفز على الدين والدولة والوطن واللغة والعادات والتقاليد والأعراف المتوارثة وكل مكونات الهوية، وتسارع الخطى في سبيل إذابة كل ما يقف مانعًا أمام انتشارها وهيمنتها، ولا تقتصر على فئةٍ دون أخرى ولا على مكان دون سواه (فقد اكتسحت العولمة الثقافية البوادي والحضر ، وفرضت نفسها عبر ثقافة

الصورة على جميع الفئات، مدشنةً بذلك عصر ما بعد المكتوب^(١).

ونرى عوامة الثقافة في كل ما يبدو حولنا من أحاديث يستعمل فيها الناس اللغات الأجنبية على حساب اللغة العربية سواء من فئة المثقفين، أو حتى العامة، الذين يفخرون بشراء الملابس المحلاة بالأحرف الإنجليزية، أو اللافتات التي تُوضع على المحلات بأسماء غير عربية، وأما المثقفون في أحاديثهم سواء في اللقاءات الخاصة أو العامة ترى التعبيرات العربية تتوارى وتختجل، وتظهر تعبيرات اللغة الإنجليزية متصدرةً المجالس، تعبر عما يريد المتحدث، وتراه فخورةً بذلك، مستأنسةً بحديثه الذي اختلطت فيه لغته بلغة أخرى، ناهيك عن الحياة العامة طعاماً، وشرباً، وثياباً، لكل فئات المجتمع. إن المرء كلما ازداد غناً، كلما اتسعت قدراته، وأصبح هدفًا للعوامة سواء في تعليم أبنائه في المدارس الأجنبية، أو في تسيير حياته بطريقة تحاكي الوافد الجديد من الثقافة الغازية، ويقف جزءٌ من الشعب مسلوب اللب مندهشاً، لأنه يرى عالماً آخر داخل مجتمعه، عالمٌ له قدرات مالية وثقافية لم يتم استيعابه، فوجد في الوافد الجديد ضالته المنشودة، فارتوى منها بعد ظمأ، وأخذ ينهل منها حتى غرق في مظاهر العوامة إلى أذنيه - خاصة - مع عدم وجود البديل الوطني، الذي يلبي طموحات تلك الفئات وتطلعاتها في عالم مفتوح، الكلمة فيها للغالب المتسلح بأدوات عصره، ولا مجال فيها للضعيف أو المتأخر المتخلف، ولكن الخطورة لا تقف عند (الاختراق

(١) جناحي، الحبيب جناحي، العوامة والفكر المعاصر، (محاضرة مطبوعة صادرة عن مؤسسة عبد

الحميد شومان ربيع، د.ط، ١٩٨٠م)، ص ٢٣.

الثقافي الذي تمارسه العولمة، فلا يقف عند حدود تكريس الاستتباع الحضاري بوجهٍ عام، بل لأنه سلاحٌ خطيرٌ يكرس الثنائية والانشطار في الهوية الوطنية، ليس الآن فقط، بل وعلى مدى الأجيال الصاعدة والقائمة، ولذلك فإن الوسائل السمعية، والبصرية، المرئية، واللامرئية التي تحمل هذا الاختراق وتكرّسه، إنما تملكها وتستفيد منها فئةٌ معينةٌ هي النخبة العصرية وحواشيها، فهي التي تستطيع امتلاكها والتعامل مع لغاتها الأجنبية، بحكم التعليم العصري الذي تتلقاه، أما عموم الشعب وعلى رأسه النخبة التقليدية، فهو في شبه عزلة، يجتر بصورةٍ أو بأخرى ثقافة الجمود على التقليد، والنتيجة استمرار إعادة إنتاج متواصلة ومتعارضة للثنائية نفسها، ثنائية التقليدي والعصري^(١)، ولقد ظهرت آثار العولمة الثقافية قوةً وضعفاً، وتباينت من مكان إلى آخر «فالإنسان العربي - في بعض حالاته - على سبيل المثال أصبح ميالاً إلى الاستهلاك، ضعيف الإحساس بالقيم الوطنية، والقومية، والاجتماعية، حريصاً على تأمين حاجته دون النظر في شرعية الأسلوب وأخلاقياته، رافضاً مجتمعه راغباً في الهجرة منه»^(٢).

مما يجعل هوية هذه المجتمعات في خطرٍ بالغ لا بد من تداركه قبل استشرَاء آثاره، وعدم القدرة على التعافي منه - خاصة - إذا كان الوافد الجديد له بريقه اللامع،

(١) الجابري، محمد عابد الجابري، العرب والعولمة والهوية الثقافية في تقييم نقدي للممارسات العولمة في المجال الثقافي، ص ٢٥.

(٢) روجي، سحر، الثقافة العربية والقرن الحادي والعشرين، (مجلة قضايا استراتيجية، العدد ٢
حزيران، د. ط، ٢٠٠٠م)، ص ٥١.

ويتمتع بإمكانيات تُسهّل له الوصول، وتلبي في الوقت نفسه بعض ما تهواه النفوس، في حين أن الأصيل الواقعي من كل مظاهر النشئت والذوبان لا زال يحتاج إلى الكثير من القدرة على المنافسة، لا لضعف في ذاته ولكن لفشل من يسوقه ويروجه.

كذلك من أوجه الخطورة في عولمة الثقافة هو (القضاء على التنوع الثقافي من خلال الوسائل الاتصالية التي تحمل قيماً متماثلة متشابهة على النمطية والمعيارية شبه موحد، وهذا الوضع يقضي تدريجياً على الثراء الثقافي والحضاري الذي يميز الجماعات البشرية، والتي تتنوع في اللغة والتجربة والإحساس المشترك ويسعى الاختراق الإعلامي إلى خلق مجتمع استهلاكي حيث تقوم أجهزته الإعلامية بالترويج للبضاعة الثقافية التجارية المرتبطة بنمطٍ معيشيٍّ معين^(١)).

(٢) القصف الإعلامي (الهيمنة الاعلامية والتلقي من جانب واحد)

لقد أسهمت تكنولوجيا الاتصالات الحديثة في أن ينظر الكثيرون من أبناء العالم - خاصة العالم الثالث - بعينٍ واحدةٍ؛ وذلك لأن تدفق المعلومات صار يأتي من اتجاهٍ واحدٍ في كل المجالات تقريباً، سواء في مجال المعلومات والأخبار، أو التسلية والتثقيف حيث تسيطر القوى العظمى العالمية على مصدر ذلك كله، وأصبح العالم الثالث أو الجنوب يأخذ من الشمال كل معلوماته تقريباً، وحتى أخباره عن مجتمعاته هو، وكما يقول الفن تولفر: (المعرفة هي المحور الذي ستدور حوله حروب المستقبل

(١) المشاقبة، بسام عبد الرحمن، الأمن الإعلامي، (الأردن: دار أسامة للنشر والتوزيع، ط ١،

٢٠١٢م)، ص ١١٦.

هذا من ناحية الكم، ويبدو فيه بجلاء هذا الكم الهائل والسييل الجارف من الأخبار والمعلومات، ناهيك عن البرامج الترفيهية التي تحمل في طياتها الكثير من قيم ومبادئ المرسل. أما من حيث الموضوع، فإن الأخبار والمعلومات يتم إرسالها بحرفية ومهنية لتصنع رأياً عاماً، وثقافة معينة، حيث يتم التركيز على كل ما يشوه العالم الثالث، ويتغاضى عمداً عن إيجابيات أو إنجازات تلك المجتمعات، هذا فضلاً عما تحدّثه من هزيمة نفسية، وفقدانٍ للثقة بالنفس، والقطيعة مع الماضي والحاضر، وفقدان الأمل في المستقبل وهذا كله يجعل هوية المجتمعات تحتاج إلى مزيد من التلقين والتأكيد.

كذلك فإن الهيمنة الإعلامية الأمريكية بما تعنيه من عولمة الإعلام. تعنى ضمور الثقافات، وتراجع الفكر النقدي واندثار الهويّات.

هذا القصف الإعلامي أكدّه تقرير ماكيريد الذي صدر عن اليونسكو، والذي نبه إلى خطورة القصف الإعلامي المتسارع، والهيمنة الإعلامية للوصول إلى هيمنة ثقافية، والذي سيؤدي حتماً إلى طغيان ثقافي على الدول الضعيفة، ويشخص التقرير واقع الإنتاج الإعلامي في الدول النامية على النحو التالي حيث يقول: (إن شاشات التلفزيون لهذه الدول تمتلئ لعدده ساعات ببرامج مستوردة صُنعت أساساً للمشاهدين من الدول المتقدمة، وتمثل هذه البرامج المستوردة في معظم الدول النامية أكثر من نصف وقت الإرسال، وفي مجال التلفزيون بالذات أكثر من غيره حيث تشور المخاوف من الغزو الحضاري والأخطار التي تهدد الذاتية الثقافية).^(١)

(١) تقرير ماكيريد، أصوات متعددة وصوت واحد، (الجزائر: منشورات الشركة الوطنية للنشر

كما أن من الآثار الوخيمة للاعتماد على الإنتاج الإعلامي الأجنبي تتمثل أيضًا تكوين رأي منحاز للمصالح الأجنبية، فمن خلال رسم صورة مشوهة لشعوب العالم الثالث، يتم تلوين الأحداث حسب هوى وكالات الأنباء العالمية (وساعد على ذلك البون الشاسع بين ما تملكه وسائل الإعلام في الدول المتقدمة والدول النامية؛ فالأولى تملك تكنولوجيا ضخمة ومتطورة بينما الثانية تملك تكنولوجيا ضعيفة جدًا وقديمة).^(١)

وسيلظل هذا الخطر قائماً ما لم تسارع هذه الدول في محاولات جادة للحفاظ على ثقافتها، وترسيخ معاني الهوية ومظاهرها في تلك المجتمعات المستهدفة .

٣- صناعة المعرفة:

إن المعرفة هي بيت القصيد وليس العلم؛ لأن المفهوم يتعدى العلوم بمعناها الصرف؛ لينسحب على الثقافة بمختلف جوانبها، ويشمل جميع أنواع المعلومات والمهارات التي يكتسبها الإنسان، وأساليب ترقية عقله ونفسه والدراسات الإعلامية في ضوء هذا الفهم من أهم مجالات صناعة المعرفة التي يتميز بها المجتمع الجديد، إلا أنها تمثل ظاهرة من ظواهر المجتمع الذي يطل علينا، وهي ظاهرة التواصل والترابط والتشابك بين شعوب العالم ومختلف النشاطات الإنسانية.^(٢)

والتوزيع، د. ط، ١٩٨١م)، ص ١٤٤-١٤٥.

(١) المرجع سابق، ص ٨٤.

(٢) شرف، عبد العزيز، وسائل الإعلام ومشكلة الثقافة، (مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط ١،

١٩٩٩م)، ص ٦١.

إن من المخاطر لتكنولوجيا الاتصالات الحديثة على الثقافة أن وسائلها لم تعد ترفع الواقع المعرفي كما هو، ولكنها تصنعه في كثير من الأحيان، فالإمكانات الكبيرة، والتقدم التقني البارع جعل من لم يحضر الحدث ويشاهده بعينه ربما يتم تضليله من خلال هذه الوسائل الحديثة التي تقدر على إلباس الباطل ثوب الحق، وإلباس الحق ثوب الباطل، وتسليط الأضواء على الأمر الصغير ليكبر، ويأخذ أكثر من حجمه، وإغفال أحداثٍ كبيرةٍ رغبةً في عدم لفت الأنظار إليها، وتكون المحصلة النهائية لكل هذه المعطيات أن المعلومات والمعرفة يتم تصنيفها وترتيبها بحيث لا يصل منها إلا ما يخدم مَنْ يتحكم في هذه التكنولوجيا؛ وبذلك تتشكل ثقافة الجماهير حول الأحداث والقضايا تبعاً لما يريده مَنْ يسلط تلك الوسائل على هذه الأحداث وتلك القضايا.

وبناءً على ذلك أؤكد على أن أكبر خسارة للثقافة الإسلامية اليوم هي عدم ريادتها في مجال تكنولوجيا الاتصالات، حتى صار التحكم في مضمون الرسائل التي تُبث من خلال هذه الوسائل يخضع خضوعاً شبه كاملٍ إلى مَنْ يرغبون في إزهاق روح كل الثقافات، سوى الثقافة الأمريكية ومصالح أهلها.

إضافة إلى ما سبق، فإن التخبط والتشتت والصراع الفكري ينشأ بين أبناء الثقافة الواحدة؛ لأن منهم من وجه وجهته لتكنولوجيا الاتصالات الحديثة، واستقى عنها كل ما يرغب في معرفته، وبنى على ذلك قيمه، ومبادئه، وأحكامه، واتجاهاته، وسلوكياته، وبين آخرين لم يسقطوا في الفخ، وأصبح عندهم وعيٌ لما يُراد لهم ولثقافتهم ولأمتهم، وهؤلاء أقليةٌ إذا ما قارنتهم بالصنف الأول، ومن هنا يحدث الانقسام والانتشار بين أبناء الثقافة الواحدة، ومع تتابع الأيام وترسيخ المفاهيم

الواردة الغازية تزداد الهوة كل يوم بين من يتشبث بهويته - رغم قله حيلته وإمكانياته - وبين من شرب مما تبثه وسائل التكنولوجيا الحديثة حتى ثمل، وهذا بدوره يُنذر بخطرٍ جسيمٍ إذ أن هؤلاء السكارى المفتونين بالثقافة الوافدة الغازية سيكونون هم أول المدافعين عنها والمروجين لها في مجتمعاتهم، وسيمثلون أكبر عقبةٍ أمام أمتهم عندما ترغب في استعادة عافية ثقافتها، أو النهوض من كبوتها، وهذا يوضح لنا موقف أهل الحداثة أو الحداثيون من الثقافة الإسلامية وقضاياها، وما يبذلونه من جهد في سبيل المزيد من التبعية وإذابة للهوية، لأن هؤلاء هم أذئاب الاستعمار الجديد، الاستعمار الإلكتروني الذي يهدف إلى التأثير في العقول، والاتجاهات، والرغبات، والاعتقادات، وأنماط الحياة، والاستهلاك فالاستعمار الإلكتروني وإدارته أحكموا سيطرتهم على تداول الصور والمعلومات، بل والإشراف على عملية مراجعتها وتنقيحها، والسبب في ذلك أن الصور والمعلومات هي التي تحدد معتقداتنا ومواقفنا، بل تحدد سلوكنا في نهاية المطاف، و - خاصة - عندما يعهد القائمون على الاتصال والإعلام إلى طرح أفكارٍ وتوجهات تتصادم مع حقائق الوجود الاجتماعي؛ ولذلك فهم يتحولون كما يقول روبرت شيللر في كتابه المتلاعبون بالعقول إلى سائسي العقول، ذلك (أن الأفكار تنحو عن عمِدٍ إلى استحداث معنى زائف، وإلى إنتاج وعيٍ لا يستطيع أن يستوعب بإرادته الشروط العقلية للحياة القائمة، أو أن يرفضها سواء على المستوى الشخصي، أو الاجتماعي، فهي ليست في واقع الحال إلا أفكار مموهة أو مضللة).^(١)

(١) روبرت، تشيللر روبرت، المتلاعبون بالعقول، (الكويت: سلسلة عالم المعرفة - عدد ١٠٦ ط ١،

وعلى ذلك تعد صناعة المعرفة من المخاطر التي تواجه الثقافة الإسلامية والعربية بل دول العالم الثالث على وجه العموم.

٤ - نشر الثقافة الاستهلاكية:

لقد أسهمت تكنولوجيا الاتصالات الحديثة في نشر - بعض القيم الهدامة، والتي تؤثر على منظومة القيم في المجتمعات الإسلامية، ومن القيم التي انتشرت مع انتشار التكنولوجيا، القيم النفعية المادية، والنزعة الاستهلاكية عند أفراد المجتمع، فلقد تسارعت الخطى نحو مزيدٍ من الاستهلاك مع زيادة الاعتماد على التكنولوجيا الحديثة، وسيل الإعلانات التي لم تدع شيئاً إلا وروجت له، ولم تدع فرداً من أفراد الأسرة إلا وخاطبته بما يرغب، فثقافة العولمة ثقافة استهلاكية من الطراز الأول، مثل الإعلانات عن الواجبات السريعة، والمشروبات الغازية، ومشروبات الطاقة، والسيارات الفارهة، والمساكن التي تتميز بالانعزال عن بقية طبقات المجتمع، وتعلن الانفصال عنه في عالمٍ جديدٍ لا يتحمل تبعات تخلف المجتمع، ولا مشكلاته الحياتية اليومية، وهذا كله ينتشر بصورة برّاقةٍ أخّاذةٍ للعين، ويعطي إحساساً بأن الحياة لا تكون حياةً إلا بهذا المستوى من العيش، الذي يعتمد على الإنفاق على كمالياتٍ كثيرةٍ تُثقل كاهل الأسر، ولا تراعي حال المجتمعات النامية، وتشرئب الأعناق في سبيل الانضمام لهذه الفئة من الناس حتى ولو كان ذلك - في بعض الأحيان - على حساب

القيم الأخرى للمجتمع، وقواعد الدين .

«وتعود ولادة الثقافة الاستهلاكية بالدرجة الأولى إلى بروز المجتمعات الصناعية الحديثة، والمجتمعات ما بعد الصناعية المعاصرة، التي حاولت تشويه وتدمير القيم الثقافية الموروثة في المجتمعات القديمة، وإبدالها بثقافة استهلاكية تُزَيِّفُ وعي الجماهير، وتفقد القدرة على التفكير السليم؛ ولذلك تم استبدال مصطلح الثقافة الإنسانية الذي يصلح لكل زمان ومكان بمقولاتٍ كثيرةٍ تركز على الثقافة اليومية، أو الثقافة كل يوم، أو لكل جيلٍ ثقافة، أو الثقافة الاستهلاكية التي تتخذها منطقاً لها للتوسع في الإنتاج السلعي الرأسمالي، الذي أدى إلى تراكم هائلٍ في الثقافة المادية في صورة منتجات استهلاكية، ومواقع للشراء والاستهلاك»^(١).

٥- نشر القيم الهدامة:

لقد أثرت التكنولوجيا الحديثة على كل فئات المجتمع من خلال نشرها لقيم هدامة، وأخص بالذكر التأثير على الجيل الجديد من خلال البرامج التي تخاطب الأطفال، والتي لا تُعَدُّ حارساً أميناً على الأجيال وثقافتها، حيث أسهمت تكنولوجيا الاتصالات الحديثة من خلال برامج وأفلام الكرتون للأطفال من صنع ثقافة العنف عند الأطفال، وغيرهم من فئات المجتمع، فقد أثر الإنتاج العالمي في «ذوق الجمهور، وجعله يميل شيئاً فشيئاً إلى أفلام الحرب والعنف الطاغية على

(١) القاضي، سماح حسين، تلفزيون الواقع ونشر الثقافة الاستهلاكية، (عمان: مكتبة جليس الزمان، د.

ط، ۲۰۱۰م)، ص ۲۷.

الإنتاج الغربي»^(١)، وبدلاً من أن تكون وسائل الاتصال الحديثة بتكنولوجياها العالية ميداناً لمعالجة قضايا الأمة الملحة في التعليم، والصحة، والاجتماع، والسياسة، والاقتصاد، وغير ذلك من مجالات الحياة، صارت ساحة للغرام والترفيه وبوقاً لتزييف العقل أو الوعي الثقافي والاجتماعي والسياسي لدى الجماهير، وفصل بين الدين والأخلاق مما يعرض استقرار المجتمع وهويته وقيمه الثابتة للمخاطر «ومثل هذا المضمون عندما يأتي من الخارج يعكس قيم مجتمع أجنبي، ويقدم وسائل تختلف حولها الآراء، وتثير قلقاً حقيقياً بين المهتمين بالمحافظة على سيادة الثقافة الوطنية. أي أن الاهتمام المعتاد للمدافعين على استقلال وسيادة الثقافة الوطنية يركز على أن الثقافة المستوردة تنتهك المحظورات الثقافية السائدة، ليس فقط فيما تقدمه من تصرفات اجتماعية غير مقبولة وعنف وجنس، ولكن أيضاً من خلال تقديم قيم جديدة للتعامل، وعادات استهلاكية، وتمرد على سيطرة الأسرة، وهذا أمر واضح للجميع، وهو يعطي مبرراً حقيقياً وصادقاً للقلق الاجتماعي عند شعوب العالم الثالث»^(٢).

ومن هذه القيم الهدامة - زيادة على ما سبق - قيم الفردية والانعزالية، حيث تركز تكنولوجيا الاتصالات الحديثة للفردية والانعزالية، حيث أصبح لكل واحدٍ ممن أدمنوا الإنترنت عالمه الخاص، مما عزز من انعزال بعض الأفراد عن أسرهم وقضايا مجتمعهم، ورغم أن «شبكة الإنترنت تمثل وسيلة جديدة لا مركزية للتخاطب

(١) سنو، مي العبد الله، الاتصال في عصر العولمة الدور والتحديات الجديدة، (مصر: دار النهضة

العربية للطباعة والنشر. ط ١، ٢٠٠١ م)، ص ٨٦.

(٢) لبيب، سعد لبيب، الثورة التكنولوجية ووسائل الاتصال العربية، ص ١٧٠.

مصادقية القرآن الكريم، ولقد تعدت مظاهر تشويهه والتعدي عليه، ومن ذلك

تحريفه عندما نشرت أمريكا ما يُسمَّى بالقرآن الجديد «فرقان الحق، والذي يُعده

الأمريكان بديلاً للقرآن الكريم بعد أن حذفوا منه ما يقرب من خمس آياته، وكلها

تتعلق بالعفة والجهاد، وكل ما يخالف عقيدة ومصالح ونظام الحياة للأمريكان»^(١).

وكذلك قضايا الألوهية، والرسالة، والقضاء والقدر واعتبار يقينهم في قضاء

الله وقدره سبباً لتخلفهم، فإن الغرب في أدبياته التي تُنشر عبر وسائل التكنولوجيا

الحديثة لا يكف عن القدح في عقيدة المسلمين وأسس إسلامهم، والإنترنت مليء

بالمقالات التي تؤيد هذا المعنى «وتشكك في ثوابت الإسلام وثقافته وتزعزع إيمان

المتصفح»^(٢) فالغرب لا يؤمن بالغيب، ولا بالوحي طريقاً للمعرفة، وهذا يعارض

نظرة الإسلام في إيمانه بالغيب، واعتماده على الوحي طريقاً من طرق المعرفة.

كما أن نظرة الغرب للنسوة والأنبيا نظرةً دونيةً ينقصها التبجيل والاحترام،

ويبدو ذلك جلياً من خلال ازدياد الغرب للأنبيا في أعمالهم الأدبية والفنية المختلفة.

كما حظيت قضايا المرأة، وقضايا الحرية باهتمام بالغ في وسائل التكنولوجيا الحديثة،

وصار تصدير معتقد الغرب وفهمه لهاتين القضيتين يمثل تحدياً لثوابت المجتمعات

العربية والإسلامية على السواء؛ وذلك لاشتغال النظرة الغربية على ما يخالف صراحة

نصوص القرآن والسنة، وأحكام الشريعة الغراء، فضلاً عن مخالفتها للنظام

(١) عرفات، وليد عرفات، أمريكا تعلن الحرب على الله، (مصر: مكتبة السفير، د. ط، ٢٠٠٤م)، ص ٨٠.

(٢) عبد الرحيم، محمد عبد الرحيم، جرائم الانترنت والاحتساب عليها، (المجلة العربية للدراسات

الأمنية والتدريسة، ٢٠٠٣، مجلد ١٨ عدد ٣)، ص ٧.

الثقافة الإسلامية وتكنولوجيا الاتصالات الحديثة

الاجتماعي المحافظ للمجتمعات العربية والإسلامية وما تعدد به من أعراف وتقاليد مما يجعل الهوية في خطر، وأصحابها في تحد حقيقي.

إن مما لا شك فيه أن تحكم القوى المعادية للثقافة الإسلامية في تكنولوجيا الاتصالات الحديثة جعل فرصتها في انتقاد وتشويه الإسلام وثقافته أمراً سهلاً المنال - لاسيما- مع الضعف والتخلف التقني الذي يعاني منه أصحاب هذه الثقافة، وصار الانترنت يمثل مطيةً ذلولاً لكل ما يريده القادحون في الثقافة الإسلامية وحاملها، ولا تزال محاولات الرد على هذه الانتقادات عبر هذه الوسائل أقل بكثير من المأمول.

المبحث الثاني:

الآثار الإيجابية لوسائل التكنولوجيا الحديثة

على الثقافة الإسلامية

لم تكن الآثار المترتبة على تكنولوجيا الاتصالات الحديثة كلها سيئة محضة، وإنما كانت لها إيجابيات يلحظها كل من له أدنى علاقة بتلك الوسائل، من هذه الآثار الإيجابية:

١ - نشر الثقافة الإسلامية:

فقد مكَّنت وسائل الاتصال الحديثة من نشر جميع الثقافات ومن بينها الثقافة الإسلامية، هذه الثقافة التي تحمل في طياتها الحرية، والعدالة، والمساواة، والتسامح، والإخاء، وغيرها من المبادئ، والقيم، والأخلاق، والسلوكيات، والآداب التي يقبلها العقل والمنطق الإنساني، وهذا بدون تسلط وهيمنة على الثقافات المجاورة لها،

وهذا يظهر الفارق الكبير بين عالمية الثقافة الإسلامية والعولمة؛ فالعولمة تعمل جاهدةً على إلغاء الخصوصيات الثقافية للمجتمعات، وتحاول دمجها وإذابتها في ثقافةٍ واحدةٍ هي ثقافة الغالب الذي تمكن من أدوات عصره، وهذا التغول من العولمة «نشأ نتيجةً لثورة الاتصالات والمواصلات الأمر الذي جعل العالم قريةً صغيرةً، وبهذا، فإن خصوصيات الثقافات والديانات والعادات والتقاليد معظمها مهددة»^(١) وهذا مغايرٌ تمامًا لعالمية الثقافة الإسلامية، والتي تنشر - مبادئها وقيمها ولا تمح الخصوصيات الثقافية للشعوب، ولذلك «وجب على الأمة الإسلامية تجاه البشرية أن تنشر المبادئ والقيم الثقافية الإسلامية في عملية تطوير للفرد والمجتمع»^(٢)، وألا تقتصر الجهود على المجتمعات المحلية بل لابد من الانطلاق للعالمية.

٢- الانفتاح على الثقافات الأخرى:

فلقد انفتحت الأبواب على مصراعيها أمام مستخدمي وسائل التكنولوجيا الحديثة، وصار اطلاعهم على ثقافة الآخرين أمرًا ميسورًا إن لم يكن مفروضًا في كثير من الأحيان، وهذا مع ما فيه من سلبياتٍ، فقد فتق أذهان الكثيرين من مستخدمي تلك الوسائل إلى أمورٍ كثيرةٍ كانوا يجهلونها، ولم يكن لهم بها سابق معرفة لولا هذه

(١) نوفل، أحمد إسماعيل، وآخرون، الثقافة الإسلامية وقضايا العصر، (الجامعة الأردنية: إصدار كلية الشريعة، ط ١، ٢٠١٢م)، ص ٢٤٧.

(٢) الهوش، أبو بكر الهوش، التقنية في المكتبات والمعلومات، (ليبيا: دار الفجر للنشر والتوزيع، د. ط، ٢٠٠٢م)، ص ٢٦٥.

التكنولوجيا الحديثة، وهذا مما يحسب لهذه الوسائل، مما يساعد مستخدمي هذه الوسائل على الاندماج في المجتمعات الدولية، والاشتراك في مشاريع وثقافات عالمية، وزيادة الرصيد الثقافي المتنوع لديهم وهذه مقولة للفيلسوف و السياسي الهندي غاندي "يجب أن أفتح بيتي لكي تهب عليها رياح كل الثقافات بشرط ألا تقتلني من جذوري"^(١)، وهذا هو المراد. انفتاح لا انبطاح، والذي تبدو فيه «المسايرة للركب الحضاري العالمي في هذا العصر والذي أصبحت فيه الإنترنت تنمو أكثر من ١٠ ٪ شهريا تقريباً»^(٢) ومما لا شك فيه أن هذا الانفتاح سيظهر «التميز الثقافي للثقافة الإسلامية والذي لا يتعارض مع التعايش الثقافي، فقد استطاعت الثقافة الإسلامية خلال تاريخها الطويل أن تجمع بين هويتها الثقافية المتميزة وبين قدرتها على الانفتاح والتعايش مع الثقافات المتنوعة، وبهذا يكون الإسلام بحق هو رائد الحوار والتعايش بين الثقافات، ليس نظرياً فقط بل وعملياً، ولكن الانفتاح هنا لابد وأن يكون محاطاً بضوابط تحول دون الذوبان في ثقافات الآخرين. انفتاح تتحقق فيه الاستفادة مما أنتجه العقل الإنساني دون تنازل عن الهوية، أو المسارعة في طريق التبعية، أو الكفران بالثقافة المحلية نتيجة الانهيار بالحديد.

٣ - تصحيح صورة الثقافة الإسلامية والعربية في الغرب:

من البديهيات أن تلك الوسائل آلة لنقل المحتويات ، و لذلك تصير مطلوبة لما يُبث

(١) مسعد، محي محمد مسعد، العولة وأثرها في المجتمع الإسلامي، ص ٩.

(٢) عباس، نشار عباس، المعلومات والتنمية الاقتصادية، (بيروت: دار الكتب العلمية، د. ط. د. ت)، ص. ١٥٦.

خلالها من مضمون يُراد نقله للآخرين. والأمن الثقافي لن يأتي إلا بامتلاك الأدوات والأجهزة المتحركة في إنتاج الثقافة ونشرها وبإمكان أصحاب الثقافة الإسلامية أن يجعلوا من وسائل التكنولوجيا الحديثة أداة للعديد من الإنجازات والمكاسب المهمة، فالانطواء على الذات لم يعد مجدياً في عالم تهدمت فيه الأسوار وحطمت فيه وسائل الاتصال الحدود، وتقلصت فيه سيادة الدول لصالح وسائل التكنولوجيا الحديثة، ولا مناص من الانفتاح على الآخر، بطريقة لا يتم فيها التنازل عن القيم والثوابت، ولا التخلي عن معالم الثقافة الأصيلة، لتقديم صورة جديدة للإسلام تعكس حقيقته ومنهجه في الحياة.

إن الانطواء والانزواء انتحارٌ ذاتي، والارتقاء في أحضان الثقافة الوافدة ضياعٌ للهوية، وذهابٌ للثقافة الأصلية، أما التعامل مع تلك الوسائل في انتفاضةٍ شاملةٍ تُعيد بناء الأمة من جديد، وتظهر صورة الثقافة الإسلامية في ثوبها الوسطى الذي يرفض العنف والإرهاب، ويرفض كذلك الذوبان والتبعية والميوعة والتحلل من أحكام الشريعة الغراء، هو باب الأمل في استعادة الثقافة الإسلامية لمكانتها، وتصحيح صورتها، ورد الشبهات المحيطة بالثقافة بها، والتي لم تدع ميداناً من ميادين الثقافة الإسلامية إلا ولجته.

٤ - تعزيز العلاقات الاجتماعية:

من الملاحظ أن التكنولوجيا ووسائلها أصبح لها أثرٌ في تسهيل التواصل بين أفراد الأسرة الواحدة سواء بالرسائل، أو التحدث عبر الوسائل الحديثة، وهذا بلا

ثقافة معينة وهى الثقافة الأمريكية.

٥. أدى القصف الإعلامي من الغرب إلى الشرق إلى سلبات كثيرة منها التضييل الثقافي لشعوب الدول النامية، وتزييف الأفكار والوعي بالقضايا الرئيسة في العالم، وفرض رؤية أحادية الجانب.

٧. لم تسلم الثقافة الإسلامية من وسائل التكنولوجيا الحديثة، حيث تم تشويهها والطنع فيها، وأثر ذلك على بعض معتنقيها، فأمنوا برؤية الغرب للكون والحياة والإنسان، وأصبحوا مدافعين عن الفكرة الغربية أكثر من الغربيين أنفسهم.

٨. لا تزال محاولات الرد والدفاع عن الثقافة الإسلامية في هذه الوسائل أقل بكثير من المتوقع، ولا يتناسب مع إمكانيات العالم الإسلامي.

٩. الإسهام في نشر الثقافة الإسلامية عبر وسائل التكنولوجيا الحديثة ضعيفٌ للغاية، مما يؤكد أن عدم امتلاك هذه التكنولوجيا أثر بالسلب على انتشار الثقافة الإسلامية.

١٠. توجد الآن فرصة عظيمة لتمدد الثقافة الإسلامية عبر وسائل التكنولوجيا الحديثة، لما لها من خصائص ستجعلها قادرة على المنافسة، وإثبات أحقيتها في السيادة الثقافية للعالم.

١١. يُعد الاعتناء بنشر الثقافة الإسلامية عبر وسائل التكنولوجيا الحديثة من سبل الدفاع عن هوية المجتمعات الإسلامية، فالواقع يدل على أن الجيل القادم جيل إلكتروني بامتياز، وترك الأجيال الصاعدة نهبا للثقافات المتباينة (المختلفة في مضمونها مع الثقافة الإسلامية) فشل زريع، وينذر بخطر وخيم.

ثانياً: التوصيات

(١) إنشاء قنوات تلفزيونية فضائية تُعرِّف بالقيم الإسلامية وبالتنوع الثقافي الذي تمتاز به حضارتنا، وتخرج من تراثنا ما يبين الثراء المعرفي المتوازن بين المادة والروح ، ويعبر عن هوية الثقافة الإسلامية.

(٢) تبني مشروعات ثقافية كبرى عبر الوسائل الإلكترونية تسهم في نشر الثقافة الإسلامية.

(٣) التأكيد على نشر المواد الإعلامية التي تحاطب العقلية الغربية، وتحت إشراف علماء متخصصين، وباللغات العالمية حتى تتسع دائرة انتشار هذه الأعمال.

(٤) المسارعة في إعداد الكوادر الإعلامية القادرة على مخاطبة العالم الغربي بـخطاب إسلامي مستنير لا يتخلى عن الثوابت ولا يختلف عن لغة العصر.

(٥) العمل على بناء الجبهة الداخلية للدول الإسلامية، وذلك من خلال تسهيل وصول الثقافة الإسلامية إلى شباب الأمة والمتعاملين مع وسائل التكنولوجيا الحديثة.

(٦) التواصل مع مراكز الأبحاث في أوروبا عبر الهيئات المتخصصة وفتح قنوات اتصالٍ وحلقات نقاش وحواراتٍ للتعريف بالإسلام وثقافته وحضارته.

(٧) العمل على اكتساب التكنولوجيا، فاكتساب التكنولوجيا بصفة عامة، وفي مجال الاتصال والإعلام بصفة خاصة، ضرورةٌ حتميةٌ للوطن العربي والعالم الإسلامي.

متابعة ما يتم تداوله عبر وسائل التكنولوجيا والرد على ما فيها.